اغنية الشمع الميت على اسوار قرطبة

في الظلمة المعتمه الرطيبة
كعابد الشمس الذي من خلل الظلام
يرقب مطلع الشروق
على سهول طيبة
ليرتوي بالدفء والندى
ظللت وحدي غارقا في الصمت والصدى
اشعل شمعتي النحيل
على زجاج المائدة
فيزحف الضوء الضئيل
في الظلمات الراكدة
ويسقط الدمع القليل صافيا مثل
لآلىء البحار.
نفثت فوق الدمع كلمتين :
ـ « الشمع مثل الحزن لا يموت
الشمع روح الكون » .
وامتزجت دموعنا على اخاديد الزجاج!

* *

بالامس قد تطايرت من حولي النار
فطرت هاربا
ولّيت وجهي شطر « قرطبة »
أطلق نحلي يجمع العصير
من زهور الشمس والخلاء
اطلق نحلي من خلاياه الجريحة
يحلب عطر الكون من غاباتها الفسيحة
ويستزيد من مواسم العطاء
وحينما يعود بالنبيذ والعسل
يمنحني الشمع ، ويمنح الاحلام،
والصفاء .
ولّيت وجهي شطر « قرطبة »
أبحث عن « ولّادة » العذراء
مع « ابن زيدون » الذي يبكي على
الضفاف
ازيل ما يحلقه من « غصص الدهر »
ونشرب السلاف
صافية ، من كفها، مثل نقاوة العروس
فيضحك النهر العجوز من لقائنا
يهدي الينا الشمس ، والامواج ،
والمجداف .
ولّيت وجهي شطر « قرطبة »
اصاحب الطيور في مواسم القطاف
واصحب الجموع في مسيرة الهدير
والغضب
الى قصور الامراء
ثم نعود بالكنوز ، والاسلاب، والذهب
نقيم عدل الفقراء
وليت وجهي شطر « قرطبة »
ارتجل الشعر على مقاهيها ،
وارقص الليلات في حاناتها العتاق
اغازل الحسان في الاسواق والخدور
واعزف القيثار تحت الشرفات
حتى اذا تمكن العشق ، وجئن للتلاق
شربت من رضابهن، واكتويت بالعناق
فان اثرت الغيرة الخفراء والحسد
نازلت في ساحاتها الفرسان، والعشاق
ثم احتضنت اجمل النساء
من حفلة العرس التي تعوم في
سحابة العطور
من قبل ان تعوم في بحيرة الدماء ،
على جواد الريح والجموح
فان اتاني الليل زائرا
قضيته في ظل غابة كثيفة
او بتُ في مضارب الفجر
أعانق النهود في « غرناطه » الجميلة.
اشعل ثار الرقص في النجوم ،
والخصور ، والحجر
وهي تداريني عن العيون . والاسياف
والخطر
حتى يلاقيني مغنيها الوديع باسما
يقول لي : « يا زهرة الذهب
يا ايها القادم من ارض النقوش
والجميز والنخيل
لم ارتحلت ها هنا ؟ »
أقول : « خلف حلمي الحنين »
فيسأل القمر
ألاّ يبيت في مضارب الفجر
الا يزور الغابة الليلة
كيلا يغطي الدم وجه الياسمين !

* *

لكنني حين سمعتُ قهقهات الخيل
في السهول
أدركت ان « قرطبة »
بعيدة كالشمس مهما زارني من خدها
شعاع
فاحترق الفحم تحت اضلعي
وطائر في الافق غنى غفوة جنائزية
وارتاع ضوء الشمع وهو يلقي
بالدموع الساخنة
على خدود من زجاج !

* *

على جبين الفجر كانت عتمة كثيفة
وكان وجهي يحترق
كنت مفيظا ، محنقا ، وحيدا ،
كنت كتابا مثقلا بالسر في غيابة
الكهوف
أحجيّة كنت ، وكانت الحروف
رموز كاهن قديم .
والشمع كان صحبتي وضوئي
كان شعاع الشمس اذ تشربه الفيمة
المطيرة
يصير الوانا
وترسم الالوان والظلال لوحة لذاتي
الوجيعة
من عمل الطبيعة
وكنت في اللوحة نهرا جف منه الماء
والحبب
وجفت الاسماك والزوارق الصغيرة
على جذور العشب والصفصاف .
كنت رمادا ، وشرارا ينطفىء
على مرافىء الضفاف .
كنت دما يسيل
من قمر قتيل
كنت سحابا غائما يفتن بالمطر
لانه تنكره الرياح
كالارض تنكر البذور في مواسم
الجفاف !

* *

« آه جاء الصبح ملفوفا بحزن القبرات
وأنا وحدي في الحلبة مقهور
تلقي الطعنات
خانه الفرسان ، والخيل التي فرت
تجر العجلات
دفعت غانية النيل به في شرك
فهوى يحضن ثلج الظلمات
قبل ان يأتي قيصر ،
فيعزّيه بحقد الكلمات !»

* *

كنت اسير في الزحام
فصرت منفيا
تحت غشاوة الظلام
فتّحت عينيا
ـ « يا ويلتا قرطبة بعيدة
ياويلتا قرطبة بعيدة ».
اخاف أن تكتسح الرياح
شموعي الباكية الوحيدة
اخاف ان يبتلع التمساح
« قرطبة » البعيدة !

القاهرة — **محمد احمد حمد**